الأبيات فأعجبته وطرب لسماعها، وقال له: اعلم أن لي قصّة عجيبة، وسوف أخبرك بجميع ما صار لي وما جرى لي من قبل أن أصير في هذه السعادة، وأجلس في هذا المكان الذي تراني فيه، فإني ما وصلت إلى هذه السعادة وهذا المكان، إلّا بعد تعب شديد ومشقّة عظيمة وأهوال كثيرة، وكم قاسيت في الزمن الأوّل من التعب والنصب! وقد سافرت سبع سفرات، وكلّ سفرة لها حكاية تحيِّر الفكر. وكلّ ذلك بالقضاء والقدر، وليس من المكتوب مفرّ ولا مهرب.

الحكاية الأولى

(أوَّل السفرات)

اعلموا- يا سادة يا كرام- أنه كان لي أب تاجر، وكان من أكابر الناس والتجّار، وكان عنده مال كثير ونوال جزيل، وقد مات وأنا ولد صغير، وخلَّف لي مالاً وعقاراً وضياعاً. فلمّا كبرت وضعت يدي على الجميع، وقد أكلت أكلاً مليحاً، وشربت شراباً مليحاً، وعاشرت الشباب، وتجمّلت بلبس الثياب، ومشيت مع الخلّان والأصحاب، واعتقدت أن ذلك يدوم لي وينفعني، ولم أزل على هذه الحالة مدّةً من الزمان. ثم إني رجعت إلى عقلي، وأفقت من غفلتي فوجدت مالي قد مال، وحالي قد حال وقد ذهب جميع ما كان عندي، ولم أستفق لنفسي إلّا وأنا مرعوب مدهوش، وقد تفكَّرت حكاية كنت أسمعها سابقاً، وهي حكاية سيِّدنا سليمان بن داود (عليه السلام) في قوله: ثلاثة خير من ثلاثة، يوم الممات خير من يوم الولادة، وكلب حيّ خير من سبع ميِّت، والقبر خير من القصر.

ثم إني قمت وجمعت ما كان عندي من أثاث وملبوس وبعته، ثم بعت عقاري وجميع ما تملك يدي، فجمعت ثلاثة آلاف درهم، وقد خطر ببالي السفر إلى بلاد الناس، وتذكّرت كلام بعض الشعراء حيث قال:

بقدر الكدّ تُكتَسب المعالي ومَنْ طلب العلا سهر الليالي

يغوص البحر من طلب اللآلئ ويحظى بالسيادة والنوالِ

ومَنْ طلب العلا من غير كَدٍّ أضاع العمر في طلب المحالِ

فعند ذلك، هممت فقمت واشتريت لي بضاعة ومتاعاً وأسباباً وشيئاً من أغراض السفر، وقد سمحت لي نفسي بالسفر في البحر، فنزلت المركب وانحدرت إلى مدينة البصرة مع جماعة من التجّار وسرنا في البحر أيّاماً ولياليَ، وقد مررنا بجزيرة بعد جزيرة ومن بحر إلى بحر ومن برٍّ إلى بَرّ. وفي كلّ مكان مررنا به نبيع ونشتري ونقايض بالبضائع فيه، وقد انطلقنا في سير البحر إلى أن وصلنا إلى جزيرة كأنها روضة من رياض الجنّة، فأرسى بنا صاحب المركب على تلك الجزيرة، ورمى مراسيها وشدَّ السقالة، فنزل جميع من كان في المركب في تلك الجزيرة، وعملوا لهم كوانين، وأوقدوا فيها النار، واختلفت أشغالهم؛ فمنهم من صار يطبخ، ومنهم من صار يغسل، ومنهم من صار يتفرّج، وكنت أنا من جملة المتفرّجين في جوانب الجزيرة. وقد اجتمع الركّاب على أكل وشرب ولهو ولعب. فبينما نحن على تلك الحالة، وإذا بصاحب المركب واقف على جانبه، وصاح بأعلى صوته: يا ركّاب السلامة، أسرعوا واطلعوا إلى المركب، وبادروا إلى الطلوع، واتركوا أسبابكم، واهربوا بأرواحكم، وفوزوا بسلامة أنفسكم من الهلاك؛ فإن هذه الجزيرة التي أنتم عليها ما هي جزيرة وإنما هي سمكة كبيرة رست في وسط البحر، فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة وقد نبتت عليها الأشجار من قديم الزمان، فلما أوقدتم عليها النار أحسّت بالسخونة فتحرّكت، وفي هذا الوقت تنزل بكم في البحر فتغرقون جميعاً، فاطلبوا النجاة لأنفسكم قبل الهلاك.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (527)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن ريِّس المركب لمّا صاح على الركّاب وقال لهم: اطلبوا النجاة لأنفسكم، واتركوا الأسباب، ولمّا سمع الركّاب كلام ذلك الريِّس، أسرعوا وبادروا بالطلوع إلى المركب، وتركوا الأسباب وحوائجهم ودسوتهم وكوانينهم، فمنهم من لحق المركب، ومنهم من لم يلحقه وقد تحرّكت تلك الجزيرة ونزلت إلى قرار البحر بجميع ما كان عليها، وانطبق عليها البحر العجاج المتلاطم بالأمواج، وكنت من جملة من تخلّف في الجزيرة، فغرقت في البحر مع جملة من غرق، ولكن الله (تعالى) أنقذني ونجّاني من الغرق، ورزقني بقطعة خشب كبيرة من القطع التي كانوا يغسلون فيها فمسكتها بيدي، وركبتها من حلاوة الروح، ورفست في الماء برجلي مثل المجاذيف والأمواج تلعب بي يميناً وشمالاً. وقد نشر الريِّس قلاع المركب وسافر بالذين طلع بهم في المركب، ولم يلتفت لمن غرق منهم. ومازلت أنظر إلى ذلك المركب حتى خفي عن عيني، وأيقنت بالهلاك. ودخل عليَّ الليل وأنا على هذه الحالة، فمكثت على ما أنا فيه يوماً وليلة، وقد ساعدني الريح والأمواج إلى أن رست بي تحت جزيرة عالية وفيها أشجار مطلّة على البحر، فمسكت فرعاً من شجرة عالية، وتعلّقت به بعدما أشرفت على الهلاك وتمسّكت به إلى أن طلعت إلى الجزيرة، فوجدت في رجلي خدلاً وأثر أكل السمك في بطونهما، ولم أشعر بذلك من شدّة ما كنت فيه من الكرب والتعب، وقد ارتميت في الجزيرة وأنا مثل الميِّت وغبت عن وجودي، وغرقت في دهشتي، ولم أزل على هذه الحالة إلى ثاني يوم. وقد طلعت الشمس عليَّ، وانتبهت في الجزيرة فوجدت رجليَّ قد ورمتا، فسرت حزيناً على ما أنا فيه، فتارةً أزحف، وتارةً أحبو على ركبي. وكان في الجزيرة فواكه كثيرة، وعيون ماء عذب، فصرت آكل من تلك الفواكه، ولم أزل على هذه الحالة مدّة أيّام وليالٍ، فتنعشت نفسي، ورُدَّت لي روحي، وقَوِيَت حركتي، وصرت أتفكّر وأمشي في جانب الجزيرة وأتفرّج بين الأشجار ممّا خلق الله (تعالى). وقد عملت لي عكّازاً من تلك الأشجار أتوكّأ عليه. ولم أزل على هذه الحالة إلى أن تمشّيت

يوماً من الأيّام في جانب الجزيرة، فلاحَ لي شبحٌ من بعيد فظننت أنه وحش أو أنه دابّة من دوابّ البحر، فتمشّيت إلى نحوه، ولم أزل أتفرّج عليه وإذا هو فرس عظيم المنظر، مربوط في جانب الجزيرة على شاطئ البحر، فدنوت منه، فصرخ عليَّ صرخة عظيمة، فارتعبت منه وأردت أن أرجع، وإذا برجل خرج من تحت الأرض، وصاح عليَّ، وتبعني وقال لي: من أنت؟ ومن أين جئت؟ وما سبب وصولك إلى هذا المكان؟ فقلت له: يا سيِّدي، اعلم أني رجل غريب، وكنت في مركب وغرقت أنا وبعض من كان فيها، فرزقني الله بقطعة خشب فركبتها وعامت بي إلى أن رمتني الأمواج في هذه الجزيرة. فلمّا سمع كلامي أمسكني من يدي، وقال لي: امشِ معي. فنزل بي في سرداب تحت الأرض، ودخل بي إلى قاعة كبيرة تحت الأرض وأجلسني في صدر تلك القاعة، وجاء لي بشيء من الطعام، وأنا كنت جائعاً فأكلت حتى شبعت واكتفيت، وارتاحت نفسي، ثم إنه سألني عن حالي وما جرى لي، فأخبرته بجميع ما كان من أمري من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجَّب من قصّتي. فلمّا فرغت من حكايتي، قلت: بالله عليك، ياسيِّدي، لا تؤاخذني، فأنا قد أخبرتك بحقيقة حالي وما جرى لي، وأنا أشتهي منك أن تخبرني من أنت، وما سبب جلوسك في هذه القاعة التي تحت الأرض، وما سبب ربطك هذه الفرس على جانب البحر، فقال لي: اعلم أننا جماعة متفرِّقون في هذه الجزيرة على جوانبها، ونحن سيّاس الملك المهرجان، وتحت أيدينا جميع خيوله. وفي كلّ شهر، عند القمر، نأتي بالخيل الجياد ونربطها في هذه الجزيرة من كلّ بكر، ونختفي في هذه القاعة تحت الأرض حتى لا يرانا أحد، فيجيء حصان من خيول البحر على رائحة تلك الخيل، ويطلع على البرّ فإن لم يرَ أحداً، يثب عليها ويقضي منها حاجته، وينزل عنها ويريد أخذها معه، فلا تقدر أن تسير معه من الرباط، فتصيح عليه ويضربها برأسه ورجليه ويصيح، فنسمع صوته، فنعلم أنه نزل عنها، فنطلع صارخين عليه، فيخاف وينزل البحر. والفرس تحمل وتلد مهراً أو مهرة تساوي خزنة مال، ولا يوجد لها نظير على وجه الأرض. وهذا وقت طلوع الحصان، وإن شاء الله (تعالى) آخذك معي إلى الملك المهرجان.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (528)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن السايس قال للسندباد البحري: آخذك معي إلى الملك المهرجان وأفرِّجك على بلادنا. واعلم أنه لولا اجتماعك علينا ما كنت ترى أحداً في هذا المكان غيرنا، وكنت تموت كمداً، ولا يدري بك أحد، ولكن أنا أكون سبب حياتك ورجوعك إلى بلادك، فدعوت له وشكرته على فضله وإحسانه. فبينما نحن في هذا الكلام، وإذا بالحصان قد طلع من البحر وصرخ صرخة عظيمة، ثم وثب على الفرس فلمّا فرغ منها نزل عنها، وأراد أخذها معه فلم يقدر، ورفست وصاحت عليه فأخذ الرجل السايس سيفاً بيده ودرقة، وطلع من باب تلك القاعة، وهو يصيح على رفقته ويقول: اطلعوا إلى الحصان، ويضرب بالسيف على الدرقة، فجاء جماعة بالرماح صارخين، فجفل منهم الحصان وراح إلى حال سبيله، ونزل في البحر مثل الجاموس، وغاب تحت الماء. فعند ذلك، جلس الرجل قليلاً، وإذا هو بأصحابه قد جاؤوه، ومع كلّ واحد فرس يقودها، فنظروني عنده فسألوني عن أمري، فأخبرتهم بما حكيته له، وقربوا مني ومدّوا السماط وأكلوا، وعزموني، فأكلت معهم، ثم إنهم قاموا وركبوا الخيول، وأخذوني إلى مدينة الملك المهرجان، وقد دخلوا عليه وأعلموه بقصّتي، فطلبني، فأدخلوني عليه وأوقفوني بين يديه، فسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام ورحَّب بي وحيّاني بإكرام، وسألني عن حالي، فأخبرته بجميع ما حصل لي وبكلّ ما رأيته من المبتدأ إلى المنتهى. عند ذلك، تعجب ممّا وقع لي وممّا جرى لي، فعند ذلك قال لي: يا ولدي، والله لقد حصل لك مزيد السلامة، ولولا طول عمرك ما نجوت من هذه الشدائد، ولكن الحمد لله على السلامة. ثم إنه أحسن إليَّ وأكرمني وقرَّبني إليه وصار يؤانسني بالكلام والملاطفة، وجعلني عنده عاملاً في ميناء البحر وكاتباً على كلّ مركب عبرت إلى البرّ، وصرت واقفاً عنده لأقضي له مصالحه، وهو يحسن إليّ وينفعني من كلّ جانب، وقد كساني كسوة مليحة فاخرة، وصرت مقدَّماً عنده في الشفاعات وقضاء مصالح الناس، ولم أزل عنده مدّة طويلة. وأنا كلّما أشقّ على

جانب البحر، اسأل التجّار والمسافرين والبحريين عن ناحية مدينة بغداد؛ لعل أحداً يخبرني عنها، فأروح معه إليها، وأعود إلى بلادي، فلم يعرفها أحد، ولم يعرف من يروح إليها، وقد تحيَّرت في ذلك وسئمت من طول الغربة. ولم أزل على هذه الحالة مدّة من الزمان إلى أن جئت يوماً من الأيّام، ودخلت على الملك المهرجان، فوجدت عنده جماعة من الهنود، فسلّمت عليهم فردّوا علي السلام ورحّبوا بي، وقد سألوني عن بلادي فذكرتها لهم، وسألتهم عن بلادهم فذكروا لي أنهم أجناس مختلفة؛ فمنهم الشاركية، وهم أشرف أجناسهم: لا يظلمون أحداً ولا يقهرونه، ومنهم جماعة تسمّى (البراهمة) وهم قوم لا يشربون الخمر أبداً، وإنما هم أصحاب حظّ وصفاء ولهو وطرب وجمال وخيول ومواشٍ، وأعلموني أن صنف الهنود يفترق على اثنين وسبعين فرقة، فتعجَّبت من ذلك غاية العجب!. ورأيت في مملكة المهرجان جزيرة من جملة الجزائر، يقال لها (كابل) يُسمَع فيها ضرب الدفوف والطبول، طول الليل. وقد أخبرنا أصحاب الجزائر والمسافرون أنهم أصحاب الجدّ والرأي. ورأيت في البحر سمكة طولها مئتا ذراع، ورأيت- أيضاً- سمكاً وجهه مثل وجه البوم، ورأيت في تلك السفرة كثيراً من العجائب والغرائب ممّا لو حكيته لكم لطال شرحه. ولم أزل أتفرَّج على تلك الجزائر وما فيها، إلى أن وقفت يوماً من الأيّام على جانب البحر، وفي يدي عكّاز حسب عاداتي، وإذا بمركب قد أقبل وفيه تجّار كثيرون. فلمّا وصل إلى ميناء المدينة وفرضته، وطوى الريِّس قلوعه، وأرسله على البرّ، ومَدّ السقالة وأطلع البحرية جميع ما كان في ذلك المركب إلى البرّ، وأبطأوا في تطليعه، وأنا واقف أكتب عليهم، فقلت لصاحب المركب: هل بقي في مركبك شيء؟ فقال: نعم، يا سيّدي، معي بضائع في بطن المركب، ولكن صاحبها غرق معنا في البحر في بعض الجزائر، ونحن قادمون في البحر.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة (529)، قالت: بلغني- أيُّها الملك السعيد- أن الريِّس قال

للسندباد البحري أن صاحب هذه البضائع غرق، وصارت بضائعه معنا، فغرضنا أننا نبيعها ونأخذ ثمنها لأجل أن نوصله إلى أهله في مدينة بغداد، دار السلام، فقلت للريِّس: ما يكون اسم ذلك الرجل صاحب البضائع؟ فقال: اسمه السندباد البحري، وقد غرق معنا في البحر. فلمّا سمعت كلامه حقَّقت النظر فيه فعرفته، وصرخت عليه صرخة عظيمة، وقلت: يا ريِّس، اعلم أني أنا صاحب البضائع التي ذكرتها، وأنا السندباد البحري الذي نزلت من المركب في الجزيرة مع جملة مَنْ نزل من التجّار، ولمّا تحركت السمكة التي كنّا عليها وصحت أنت علينا، طلع من طلع وغرق الباقي، وكنت أنا من جملة من غرق، ولكن الله (تعالى) سلمني ونجّاني من الغرق بقطعة كبيرة من القطع التي كان الركّاب يغسلون فيها، فركبتها وصرت أرفس برجلي، وساعدني الريح والموج إلى أن وصلت إلى هذه الجزيرة، فطلعت فيها وأعانني الله (تعالى) بسُيّاس الملك المهرجان، فأخبرته بقصّتي، فأنعم عليَّ وجعلني كاتباً على ميناء هذه المدينة، فصرت أنتفع بخدمته، وصار لي عنده قبول، وهذه البضائع التي معك بضائعي ورزقي. قال الريِّس: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم. ما بقي لأحد أمانة ولا ذمّة، فقلت له: يا ريِّس، ما سبب ذلك وأنك سمعتني أخبرتك بقصّتي؟ فقال الريِّس: لأنك سمعتني أقول أن معي بضائع صاحبها غرق، فتريد أن تأخذها بلا حقّ، وهذا حرام عليك، فإننا رأيناه لمّا غرق، وكان معه جماعة من الركّاب كثيرون وما نجا منهم أحد، فكيف تدَّعي أنك أنت صاحب البضائع؟ فقلت له: يا ريِّس، اسمع قصّتي، وافهم كلامي يظهر لك صدقي، فإن الكذب سمة المنافقين، ثم إني حكيت للريِّس جميع ما كان مني، من حين خرجت معه من مدينة بغداد إلى أن وصلنا تلك الجزيرة التي غرقنا فيها، وأخبرته ببعض أحوال جرت بيني وبينه، فعند ذلك تحقَّق الريِّس والتجّار من صدقي فعرفوني وهنّأوني بالسلامة، وقالوا جميعاً: والله، ما كنّا نصدِّق بأنك نجوت من الغرق، ولكن رَزَقك الله عمراً جديداً. ثم إنهم أعطوني البضائع، فوجدت اسمي مكتوباً عليها ولم ينقص منها شيء، ففتحتها وأخرجت منها شيئاً نفيساً غالي

الثمن، وحملته معي بحرية المركب، وطلعت به إلى الملك، على سبيل الهدية، وأعلمت الملك بأن هذا المركب هو الذي كنت فيه، وأخبرته أن بضائعي وصلت إليَّ بالتمام والكمال، وأن هذه الهدية منها. فتعجَّب الملك من ذلك الأمر غاية العجب، وظهر له صدقي في جميع ما قلته، وقد أحبَّني محبّة شديدة، وأكرمني إكراماً زائداً، ووهب لي شيئاً كثيراً في نظير هديّتي، ثم بعت حمولتي وما كان معي من البضائع وكسبت فيها شيئاً كثيراً، واشتريت بضاعة وأسباباً ومتاعاً من تلك المدينة. ولمّا أراد تجّار المركب السفر، شحنت جميع ما كان معي في المركب، ودخلت عند الملك، وشكرته على فضله وإحسانه، ثم استأذنته في السفر إلى بلادي وأهلي فودَّعني وأعطاني شيئاً كثيراً، عند سفري، من متاع تلك المدينة، فودعته ونزلت المركب وسافرنا بإذن الله (تعالى)، وخدمنا السعد وساعدتنا المقادير. ولم نزل مسافرين ليلاً ونهاراً إلى أن وصلنا، بالسلامة، إلى مدينة البصرة، وطلعنا إليها وأقمنا فيها زمناً قليلاً، وقد فرحت بسلامتي وعودتي إلى بلادي. بعد ذلك، توجَّهت إلى مدينة بغداد، دار السلام، ومعي من الحمول والمتاع والأسباب شيء كثير له قيمة عظيمة. ثم جئت إلى حارتي، ودخلت بيتي، وقد جاء جميع أهلي وأصحابي، ثم إني اشتريت لي خدماً وحشماً ومماليك وسراري وعبيداً حتى صار عندي شيء كثير، واشتريت لي دوراً وأماكن وعقاراً أكثر من الأوَّل. ثم إني عاشرت الأصحاب، ورافقت الخلّان، وصرت أكثر ممّا كنت عليه في الزمن الأوَّل، ونسيت جميع ما كنت قاسيت من التعب والغربة والمشقّة وأهوال السفر، واشتغلت باللذّات والمسرّات والمآكل الطيِّبة والمشارب النفيسة، ولم أزل على هذه الحالة. وهذا ما كان في أوّل سفراتي، وفي غدٍ- إن شاء الله (تعالى)- أحكي لكم الثانية من السبع سفرات. ثم إن السندباد البحري عشّى السندباد البرّي عنده، وأمر له بمئة مثقال ذهباً، وقال له: آنستنا في هذا النهار، فشكره الحمّال، وأخذ معه ما وهبه له وانصرف إلى حال سبيله، وهو متفكّر فيما يقع وما يجري للناس، ويتعجَّب غاية العجب، ونام تلك الليلة في منزله. ولمّا أصبح الصباح، جاء إلى بيت السندباد البحري، ودخل عنده فرحَّب

به وأكرمه وأجلسه عنده، ولما حضر بقيّة أصحابه قدَّم لهم الطعام والشراب، وقد صفا لهم الوقت، وحصل لهم الطرب، فبدأ السندباد البحري بالكلام، وقال: اعلموا، يا إخواني، أنني كنت في ألذّ عيش وأصفى سرور على ما تقدَّم ذكره لكم بالأمس.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.